

سياسة نورالدين زنكي الوحدوية في بلاد الشام ومصر وأثرها في التصدي للغزو الصليبي

The Unification Policy of Nur al-Din Zinki in the Levant and Egypt and Its Impact on Resisting the Crusader Invasion

خالد كريبي¹

¹ المركز الجامعي سي الحواس- بركة، باتنة، الجزائر، khaled.kribi@cu-barika.dz

تاريخ الاستلام: 2025 / 03 / 10 تاريخ القبول: 2025 / 05 / 08 تاريخ النشر 2025/06/03

Abstract:

The heroism and glory of Salah al-Din al-Ayyubi are often rumored by the general public, and this is based on the Battle of Hattin, the liberation of Jerusalem, and the expulsion of the aggressor Franks from it, and this is actually the basis of a project, and an acceptable vision, but very few who look into the depths of history, and probe its depths, and stand by the facts after him came the heroic commander Nur al-Din Mahmud, who strengthened his authority, strengthened his army and grew his ambition to complete the career of his father Imad al-Din Zinki. Especially after the death of His elder brother Ghazi is the king of the eastern side of the state represented in Mosul and the island.

Keywords:

Nur al-Din Zinki ; Crusades; Jerusalem; Levant; Salah al Din.

الملخص:

كثيرا ما يشاع عند عامة الناس بطولة ومجد صلاح الدين الأيوبي وهذا انطلاقا من معركة حطين، وتحرير القدس، وطرد الفرنجة المعتدين منها، وهذا في الحقيقة أساس مشروع، ورؤية مقبولة، لكن القلة القليلة ممن يبحثون في غياهب التاريخ، ويسبرون غوره، فيقفون عند حقائق الأمور ومسلماتها، ذلك أن قصة الفتح المبين إنما تبدأ انطلاقا من المشروع الذي بدأه عماد الدين زنكي أحد القادة المهمشين ورمز من رموز البطولة والانتصار، فهو الذي قام بتأسيس اللبنة الأولى لمسلسل الانتصارات والفتوحات، وجاء من بعده القائد البطل نور الدين محمود، الذي قوي سلطانه وعز جنده وكبر طموحه في أن يكمل مسيرة والده عماد الدين زنكي خاصة بعد وفاة أخيه الأكبر غازي ملك الجهة الشرقية للدولة الممثلة في الموصل والجزيرة.

الكلمات المفتاحية: نور الدين زنكي، الحروب الصليبية، القدس، بلاد الشام، صلاح الدين.

1. مقدمة:

يعد العدوان الصليبي على المشرق الإسلامي نهاية القرن الخامس هجري /الحادي عشر ميلادي من أهم الأحداث التاريخية التي شهدتها العالم الإسلامي وأخطرها فقد تمكنوا من السيطرة على الكثير من المناطق وأسسوا العديد من الإمارات بعد احتلالهم لبيت المقدس، مستغلين عجز الخلافة العباسية وتدهور نفوذ السلاجقة من ناحية وانحلال الخلافة الفاطمية في مصر وبلاد الشام من

ناحية أخرى. ونتيجة لما أحدثه هذا العدوان وقاد إليه فيما بعد، قىض الله لهذه الأمة أسروقيادة بذلوا جهودا مضنية للنهوض بالأمة وتجديد دماءها بعد الضعف الذي أصابها. فبرزت أسرة آل زنكي التي أسست دولة الاتابكة في الموصل ورفعت راية الجهاد ضد الصليبيين بعد أن جمعت القوى الإسلامية المتناحرة، وحشدت طاقاتها في الموصل وبلاد الشام وتمكنت من مواجهة العدوان الصليبي. وبرز القائد محمود نور الدين زنكي الذي اقتنع بضرورة وحدة الأمة للوقوف في وجه أعدائها، وأسس دولة قوية مكنته من مقارعة الصليبيين. وسنقف من خلال هذا العرض عند سيرة هذا البطل وعلى جملة من الأسباب والدواعي التي كانت سببا في بعث مشروع قيام الوحدة، ونعمل على رصد الأحداث والمواقف الهامة التي واكبت تطور مسيرة هذا القائد.

2. شخصية نور الدين زنكي :

ولد نور الدين محمود زنكي في شوال 511هـ/1118م وثاني أبناء عماد الدين زنكي، وكان نور الدين أصغر من أخيه سيف الدين غازي، ورث نور الدين الكثير من صفات أبيه حيث إنه الحاكم الفاضل إلى حد بعيدا جدا، فقد تميز بالشجاعة والكفاءة الإدارية والعسكرية والبراعة السياسية والرغبة الشديدة في رفع راية الجهاد ضد الغزاة الإفرنج قال ابن الأثير: "وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه كان أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأيا، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه"¹، وهذه الخبرة اكتسبها من أبيه وقواده أثناء مرافقته لهم في الكثير من الحروب ضد العدو الصليبي

إلى جانب ذلك كان لتدنيه وزهده وحبه للعلم والعلماء وحضوره لمجالس الفقهاء والصالحين، زيادة في بروز شخصيته التي اتضحت معالمها أكثر عندما تولى الحكم في الشام، وكما كان أيضا يستشير ذوي الخبرة والصلاح والتدين في كثير من الأمور، لأنه يشعر انه مسؤول عن رفاهية رعيته أمام الله سبحانه وتعالى، وكان لا ينفق موارد بلاده الغزيرة إلا على الرعية وتحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاهر بالأعداء، وقد أولى اهتماما خاصا بتدريب الجند باستمرار وتزويدهم بأفضل الأسلحة وتحصين المدن والقللاع وبناء الأبراج في مختلف نواحي دولته، كما شحن الأبراج بالمقاتلين والمعدات الحربية .

3. جهود نور الدين في توحيد الجبهة الإسلامية

1.3. بلاد الشام والموصل:

ولأن المتعارف عليه أن تعود الخلافة إلى ولديه جمال الدين وزين الدين من بعده، إلا أنهما رغبا عنها وقررا تسليمها لعمهما قطب الدين مودود² الذي كان على إمارة الموصل حينها، بعدما أحضره من داره وحلفوه لهم وحلفوا له، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد، واستقر في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين³، وفي الجبهة الأخرى كان نور الدين قد قطع شوطا كبيرا - منذ وفاة والده - في إعادة توحيد الكتائب الإسلامية في محيط إقليمه بالشام، ومما زاده قوة وقبولا كونه ركز اهتمامه في الحفاظ على الأقاليم التي حررها والده عماد الدين من أيدي الصليبيين، وليس هذا فحسب بل رفع سقف الاهتمام إلى غزو الإفرنج في عقر ديارهم - الإمارات التي احتلوها في بلاد الشرق- فكانت له محاولات في مداومة وحصار قلاعهم وحصونهم، وقد كلل ذلك بانتصارات عديدة كان من ثمارها أن ملك

وفتح عدة مدن وحصون كمدينة أرتاح، وحصن مابولة، وبصرفوت، وكفر لاثا⁴ واستعادة مدينة الرها التي حاول جوسلين السيطرة عليها وضمها إليه مستغلا بذلك وفاة عماد الدين إلا أن خداعه ومكره انطلى عليه فأرداه أسيرا لدى جنود نورالدين. كانت هذه سياسة القوة والعسكر التي تميز بها القائد الفذ نور الدين، فأولاهما اهتماما بالغا، وجعلها نصب عينيه، وقد أتقنها أيما إتقان، ومع ذلك لم ينثني عزما واجتهادا في جبهات العلم والمعرفة، انطلاقا من إدراكه الجازم أنَّ أي حضارة لابد - لقيامها- أن تستند إلى قاعدة فكرية علمية متينة، وأنَّ ممَّا تميزت به الحضارة الإسلامية هي رجوعها وارتباطها الوثيق بتعاليم الدين مع تحقيق الوحدة والاجتماع، ولن يتأتَّى هذا الارتباط وهذا التماسك إلا بانتقاء ما أُثِر عن النبي صلى الله عليه وسلم من سنة صحيحة، ونبذ ما لحق بها من البدع والضلالات، وهذا الذي لم يغفله القائد نور الدين، بل ركز عليه كثيرا، خاصة وقد كانت عليه مسحة الشغف بطلب العلم، والنهم في تحصيله، وحبُّ أهله، والإحسان إليهم، وقد صرح بذلك-هو نفسه- قائلا: " ونحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل، وقال : نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها، وقال مخاطبا أحد ولاته: أنظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميز بين المحاسن والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة"⁵، ويكفيك أنه تتويجا لذلك سعى في بعث الحراك العلمي والفكري من جديد في صورة تلك الأعمال الجليلة التي قام بها والتي بدأت منذ استشهاد والده عماد الدين رحمه الله تعالى، وهذا الذي أورده أبو شامة في كتاب مختصر

الروضتين قائلاً: "...وأظهر بحلب السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبني بها المدارس ووقف الأوقاف وأظهر العدل..."⁶.

هذا وقد "تنازل أخيه الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي بالجزيرة"⁷، وكان جرّاء هذا الاتفاق أن قويت شوكة نور الدين واشتد ساعده وراوده الحنين إلى جهة دمشق كي يحررها فكان له ذلك سنة 549هـ/1154م، بعد سجالية المد والجزر، التي طبعها الخوف والارتباب والتردد، بين جهات ثلاثة شكّلتها أولاً إمارة دمشق في الجهة الشمالية وعلى رأسها معين الدين أنر⁸ وثانياً إمارة القدس ممثلة بالفئة الصليبية، وثالثاً القائد نو الدين زنكي ومشروعه الرامي إلى توسيع دائرة الوحدة الإسلامية في جميع البلاد الشرقية، ولما استقر له ملك دمشق، كانت فاتحة خير عليه لما تميزت به من مؤهلات، ومقومات تصب بطريق مباشرة لما يحمله ويطمح إليه القائد نور الدين، خاصة وأنها أعطته جرعة نفسية ومعنوية للمضي قدماً في مسيرته، في حين أنها زلزلت عروش الظلمة من الصليبيين، وبعثت في قلوبهم الضعف والوهن، فقد قال ابن الأثير: "كان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلمهم وليست له دمشق فكيف إذا أخذها وقوي بها"⁹، ثم من الجهة المقابلة، كان لاسترجاع دمشق الدور الكبير في ظهور العائلة الأيوبية كعنصر فعال، وحجر أساس لخارطة الطريق في بناء الدولة النورية الزنكية، ذلك أن أسد الدين شيركوه الأيوبي¹⁰ كان له الدور الكبير في تحرير دمشق، مما جعل نور الدين يوليه علماً. كما جاء في مختصر الروضتين: "...وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها فولاه نور الدين أمرها، ورد إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه

نور الدين الرحبة¹¹، وبالمقابل عمد على ترقية صلاح الدين الأيوبي - الذي عمه أسد الدين - فجعله من خاصة خاصته، لا يفارقه في حضر، ولا يفتقده في سفر، مما جعل العلاقة وطيدة بينهما، ومن موافقات القدر أن صلاح الدين كان يتقن لعب الكرة على الخيول وهي الهواية المفضلة لدى القائد نور الدين، فلا عجب ولا غرو لهذا الائتلاف الذي يمتد ساحله بين ثنائية الجد والهزل، أن تذهب فيه وشائج النفوس، وخالج السرائر، كل مذهب، خاصة إذا بُني على أصل أصيل وعقيدة راسخة، وهي تقوى الله عز وجل، فتنتثر على ضفافها، سنحات الثقة ونفحات الوفاء وتقريراً لهذه العلاقة المتينة صرح ابن أبي طي قائلاً: "واستخلص نور الدين صلاح الدين، وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا في حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة¹²، وعليه فإنّ هذه الملائمة التي حظي بها صلاح الدين دون غيره، ستكسبه شيئاً من الممارسة العملية لفنون القيادة ودهاليز الحكم، ومناورات السياسة.

بعد أن توحدت الجبهة الشرقية مع الجبهة الغربية الساحلية، وأضحى امتدادها من الموصل شرقاً إلى تخوم فلسطين مروراً بدمشق، كانت بوادر مشروع الوحدة الإسلامية الذي عقده عماد الدين زنكي قد لاحت في الأفق، ولما استحكمت السياسة العسكرية النورية على العراق ودمشق، لم يبق للإفرنج مطمعا في الأقاليم الشرقية للمسلمين، فولوا وجهتهم الاستعمارية إلى الطريق الجنوبي قصد احتلال مصر، وهذا الذي تطفن له القائد نور الدين، فما كان منه إلا أن كثّف وشدّ هجومات عديدة على الصليبيين في الشام، كمناورة سياسية في قوالب عسكرية من شأنها أن تُرهل الكيد الصليبي تُجاه البلاد المصرية، وكان هذا من دهائه وذكائه في

مُجاعة الأحداث وتوجيهها من بعيد، فقد أشغل الصليبيين وأرخی عزائمهم، وألبسهم ثوب التردد والاستكانة في تحقيق غايتهم ومطلبهم للتوسع في الديار المصرية، لكن ومع ذلك فإنَّ الأمر الذي كان يُؤرق قائدنا المظفر، هو كون الدولة الفاطمية التي مركزها مصر، كانت في مرحلة الاحتضار، وأنَّ أي طارئ سيطراً عليها سيفكك وحدتها وتماسكها، وسيبعث على تسهيل الأمر للصليبيين بأن يحتلوها، وقد لوَّحوا لذلك باحتلالهم إمارة عسقلان سنة 548هـ/1153م¹³، كما أنَّ حاكم بيت المقدس الصليبي بلدوين الثالث لم يفتأ أن جهَّز جيشاً جراراً لاحتلال مصر متخذاً من مسألة عدم دفع الجزية ومقدارها مائة وستون ألف دينار ذريعة لغزو مصر مستغلاً بذلك الظروف الصعبة التي تمر بها مصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية وكثرة المشاكل الداخلية والصراع على الوزارة، لكن سرعان ما انكسروا نهزم¹⁴.

2.3. مصر:

وفي ظل هذه الظروف، انتهج نور الدين سياسة التقارب مع الجبهة المصرية، وأدرك أن الجبهة الإسلامية التي بدأها والده عماد الدين لا يمكن أن تكتمل وحدتها إلا بإخضاع مصر لنفوذه، وقد جاءت الفرصة سانحة لنور الدين عندما استنجد به الوزير شاور¹⁵ وزير العاضد والذي خلعه ضرغام عن الوزارة لإعادته إلى مكانه في كرسي الوزارة والتخلص من ضرغام مقابل أن يدفع شاور لنور الدين ثلث إيرادات مصر وان يدين له بالولاء، وكان من الأعمال التي قام بها، أن أرسل ثلاث حملات عسكرية متتالية، غرضها التعاون مع الدولة الفاطمية ضد الاحتلال الصليبي، ودامت تقريبا خمس سنوات من 559 إلى 564هـ/1164-1168م، وكان من ضمن هذه البعثات العسكرية، جيشاً قويا بقيادة البطل أسد الدين شيركوه، ومعه

ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وقد أقاما بمصر إلى أن قُلت الخليفة الفاطمي العاضد أسد الدين شيركوه وزيرا للدولة، لما رأى فيه النجابة والذكاء والتفاف رجاله من حوله¹⁶، ولكي يحتمي به في ظل ضعف حاشيته الفاطمية، وسؤرة التخطيط الدائرة في محيط القصر خاصة من وزيره شاور¹⁷، فكان التخلص من شاور أمرا لا بد منه بالنسبة لشيركوه يقول ابن خلكان: "وتحقق أسد الدين شيركوه انه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع البقاء على شاور، واجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه"¹⁸. وقد تعددت الأسباب التي ذكرت في مقتل شاور فابن الأثير يذكر أن شيركوه قرر التخلص من شاور بقتله وقد عهد إلى ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي بهذه المهمة، أما أبو شامة فيذكر أن الخليفة العاضد هو الذي أمر شيركوه بقتل شاور¹⁹.

لكن لم يمض وقتٌ طويلٌ وبسبب خشية الخليفة العاضد من قوة أسد الدين، وخوفه من قلب الطاولة عليه، حتى تأمر مع الصليبيين عليه كي يقتلوه غيلة، وهذا الذي تفتن له صلاح الدين مع عمه، إلا أن ردود الأفعال منهما كان يشوبها التردد والإحجام بسبب موقف أسد الدين الذي كان يراعي ويراقب تداعيات النظام العام، وفي خطة جريئة من صلاح الدين تمكن من السيطرة على قصر العاضد وإعلان الخطبة للخليفة العباسي²⁰، وبالتالي تم إلحاق مصر كمملكة تابعة لحكم نور الدين زنكي سنة 567هـ/1171م، وهذا الذي استحسنه كثيرٌ من الفئات المصرية ممثلة في رجال الدين من علماء ومؤرخين ومفكرين وعمداء السياسة من وزراء وقضاة وأمناء دواوين... خاصة من الوزير العَلَم صاحب ديوان الإنشاء في الدولة الفاطمية القاضي الفاضل، والذي كان قد خطط لذلك بعد أن عين -عن

كثب- تلك التجاوزات الخطيرة التي مارسها رجال الدولة الفاطميين على مستويات عديدة، والتي لم تسلم منها حتى الأبعاد الروحية الإيمانية الدينية في صورة التآمر مع الصليبيين ضد البلاد الإسلامية²¹. ثم إنَّ المساعي المبذولة في توحيد المسلمين ولمَّ شملهم، وتحقيق جهة متماسكة تقف ضد المد الصليبي ودحضه، لاقت قبُولاً منقطع النظير في أوساط المجتمع المصري فكان من السهولة بمكان²².

ومن الوضوح ببيان؛ أن تأذن بسقوط الدولة الفاطمية مُعلنة بذلك تحقيق خطوة جبَّارة في رسالة فتح بيت المقدس، التي كان قد بدأها عماد الدين زنكي واستمر فيها -من بعده- ابنه القائد المظفر نور الدين محمود، والذي جعل على مصر القائد صلاح الدين الأيوبي بعدما توفي عمُّه أسد الدين، وأصبحت الخريطة العامة للدولة الإسلامية تحتفل بقطبين هامَّين لها، فمن الجهة الشرقية الشام والموصل ويحكمها بطلٌ ضرغامٌ، وأسدٌ همامٌ، هو نور الدين زنكي، ومن الجهة الغربية مصر وأعمالها على رأسها بطلٌ آخر لا يقل قوةً ونكايةً بالأعداء عن الأمير الزنكي وهو الناصر صلاح الدين الأيوبي.

أيقظت خلافة أسد الدين شيركوه في منصبه الكثير من الطموحات بين الفرقاء؛ إذ حدثت إثروفااته خلافات وتنافسات على منصب الوزارة بين بعض أمراء نور الدين محمود الذين رافقوا الحملة، بينما ظل صلاح الدين ممتنعاً عن قبولها، ولكن الفقيه عيسى الهكاري ساندَه مُقْتَرِحاً ترشيحه لهذا المنصب؛ فقرر الخليفة العاضد اختيار صلاح الدين لاعتلاء منصب الوزارة خَلْفاً لعمه؛ لاعتقاده أن صِغَر سنِّه وافتقاره للتجربة سوف تجعله أداة سهلة في يد الخليفة، يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه²³.

أما الصليبيون فلما علموا بوزارة صلاح الدين على مصر أصيبوا بحالة من الخوف، يقول ابن واصل في هذا الصدد: "...لما ملك صلاح الدين الديار المصرية واستقرت قدمه بها واستقرت بها العناصر النورية أيقن الإفرنج بالهلاك وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هارٍ..."²⁴، فتحركت قواتهم من ثلاث جهات برا وبحرا، ذلك أن ممتلكاتهم كانت بين الشام ومصر، فعمدوا إلى حصار دمياط، وفي الجهة المقابلة تجمع العبيديون في الجنوب لمهاجموا صلاح الدين من الداخل²⁵، في حين أن صلاح الدين كان قد قصد حصن الكرك المنيع الذي كان يُشكل حاجزا مؤرقا لصلاح الدين، وقد تنبه نور الدين لمحاولات الصليبيين في غزو مصر فشَنَّ عليهم هجومات عديدة من الجهة الشمالية حتى يُشغلهم ويشتت تركيزهم على محاصرة دمياط، وقد استمرت هذه المعارك عدة أيام، بما فيها هجومات الجنوب التي طالت غزة وعسقلان والرملة، وفي سنة 567هـ/1171م²⁶.

مات الملك العاضد لدين الله آخر الحكام العبيديين، فتم إلغاء الخلافة العبيدية بعد حوالي أكثر من قرنين من الحكم والنفوذ، وعليه خُطب للخليفة العباسي المستضيء بالله في مساجد مصر، ثم تولى صلاح الدين إلغاء المحاكم ومجالس القضاء العبيدية²⁷ وأحلَّ مكانها هيئات العدل السُّنية والتي يعتمد قضاؤها المذاهب المعروفة كالشافعية والمالكية، كما أبطل آذان (حي على خير العمل) الذي أحدثه العبيديون وقضى على معالم الدولة الفاطمية²⁸.

4. الخلاف النوري الصالحي:

1.4. تردد صلاح الدين في إسقاط الخلافة الفاطمية:

تورد بعض المصادر التاريخية أن الملك العادل نور الدين لم يكن مرتاحاً لاختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة وهذا هو نفس شعوره عند ما سمع نبأ توزيع العاضد لعمه شيركوه من قبل ".ولما بلغ الملك العادل نور الدين-صاحب الشام-فتح مصر فرح به وشكر الله تعالى، الذي كان على يده. غير أنه لما تحقق وزارة الملك المنصور أسد الدين شيركوه، بالديار المصرية، أمضه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته، وفلتات كلماته، الكراهة لما صار إليه أسد الدين شيركوه"²⁹. حيث حاول أن يعيده إلى الشام، وكاتب العاضد في ذلك أكثر من مرة وحدث جماعة أن الملك العادل نور الدين كتب عدة مكاتبات إلى العاضد - صاحب الديار المصرية- يسأله إرسال أسد الدين شيركوه إليه، ليزول عنه ما حصل من مصر ووزراتها"³⁰.

وتجددت هذه الشكوك لدى نورالدين تجاه الأيوبيين بعد تولي صلاح الدين الوزارة بعد عمه، بل أعظم ذلك وأنكره، وغضب لأن صلاح الدين لم يستشره في ذلك الموضوع وكتب إليه في هذا المعنى عدة رسائل غير أن صلاح الدين لم يلتفت إليها وإن لم يخرج عن طاعة نور الدين وأمره"³¹.

ولعل أهم ما تضمنته تلك الرسائل بعد أن ثبت صلاح إقدامه في مصر إلحاحه على قطع الخطبة للعاضد بل والقبض عليه، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي المستنجد بالله، واستعان في ذلك بوالد صلاح الدين عندما أرسله إليه ليحث ابنه على قطع خطبة العاضد، ورافق نورالدين نجم الدين أيوب أثناء سفره وبقية أسرته حيث يذكر ابن كثير: "وفيها حاصر نور الدين الكرك أربعة أيام، وفارقه من هناك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين متوجهاً إلى ابنه بمصر، وقد وصاه

الملك نور الدين أن يأمر ابنه صلاح الدين أن يخطب بمصر للخليفة المستنجد بالله العباسي، وذلك أن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك"³²

وظل نور الدين يبادر صلاح الدين بقطع الخطبة للعاضد والقضاء على الدولة الفاطمية، وكان نور الدين مدفوعاً بسنيته وكرهه للشيعة، وبرغبته في إجابة الخليفة العباسي إلى طلبه، فقد كان دائم الإلحاح عليه أن يقيم له الخطبة في مصر، ولكن صلاح الدين كان اعلم من نور الدين بأحوال مصر. لهذا أثر التمهّل، وأن يمهّد الطريق قبل أن يضرب ضربه، فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه لاسترجاع نفوذهم وسلطانهم المسلوب، وكان صلاح الدين يخشى إن هو أسرع بقطع الخطبة أن ينجح هؤلاء في الثورة عليه، يقول ابن واصل: "كتب الملك العادل إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة من بني العباس، فاعتذر صلاح الدين لخوفه من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة لذلك لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل به يلزمه الزاماً لا فسحة فيه"³³.

ومما زاد في الجفوة التي حدثت بين صلاح الدين ونور الدين محمود، أن صلاح الدين بعث برسول له إلى الخليفة العباسي ليبشره بعودة مصر إلى حكمه وانتهاء الخلافة الفاطمية، فأعتبر نور الدين هذا التصرف إساءة له، وإهمالاً لشأنه خاصة وأن صلاح الدين يحكم باسمه في مصر، باعتباره نائباً له.

ومما يؤكد أن القائد نور الدين ظل يريد إحكام قبضته على مصر وإبعاد صلاح الدين عنها حتى بعد زوال الأخطار التي كانت تهدد الوجود النوري بمصر وإرجاع الخطبة لبني العباس بها؛ ما بدر من نور الدين عندما أرسل إلى مصر في

عام 569هـ/1173م موفق الدين خالد القيسزاني متولي ديوان الاستيفاء ليتحقق من أحوال البلاد ويطلب منه أوراقا بخراج مصر والتحري بالتفصيل المركز المالي بها، ويحدد ما ينبغي أن تدفعه مصر من الجزية كل سنة لنورالدين وهي في النهاية محاولة من نور الدين التعرف على نوايا صلاح الدين وميوله³⁴.

و استطاع صلاح الدين أن يقنع القيسراني بحسن تصرفه، وجمع له الأموال التي سترسل لنورالدين، غير أنه عند عودته لبلاد الشام وهو في الطريق علم بوفاة نور الدين محمود.

وكيفما كان الحال فالملاحظ أن أعمال صلاح الدين منذ توليه الوزارة كانت تؤكد أنها تسير في هذا الاتجاه هو إزالة الخلافة الفاطمية وأنه أراد أن يتخذ للأمر أهبطه حتى لا يعصف هذا العمل الجريء بالوجود النوري في مصر، وبمنظرة كلها حكمة وسداد فلوانه أطاع نور الدين محمود وقطع الخطبة منذ وصول أوامره إليه بذلك، لربما لا يمر ذلك العمل بسلام. فسقوط الدولة الفاطمية لم يمر في هدوء بالنظر إلى تلك الحركات المعارضة القوية التي أعقبها، والتي كاد ينجح بعضها كالحركة التي تزعمها عمارة اليميني³⁵

2.4. الخلاف على قتال الصليبيين:

كانت بداية هذا الخلاف أن صلاح الدين خرج من مصر في شهر محرم سنة 567هـ/1171م إلى بلاد الفرنج غازيًا، بناء على أوامر صدرت عليه من نور الدين لمهاجمة حصن الشوبك، وحاصره، وضيق على من به من الفرنج، وأدام القتال، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك، فلما سمع نور الدين بما

فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج؛ ليدخل إليها من جهة أخرى³⁶.

وكان بعض المقربين لصلاح الدين خوفوه من نور الدين ونصحوه بعدم الاجتماع به إذ ربما يقبض عليه، حيث يورد ابن الأثير ذلك: "إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال: أنت من جانب ونور الدين من جانب، مَلَكْها، ومتى زال الفرنجُ عن الطريق وأخذ مُلْكهم لم يبقَ بديار مصر مقامٌ مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا، فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكِّم فيك بما شاء، إن شاء تركك وإن شاء عزلك، فقد لا تقدِرُ على الامتناع عليه؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر، فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخُذْ من الفرنج"³⁷.

وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعته العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، وأطال الاعتذار، فشق ذلك على نور الدين ولم يقبلها منه، وتغيَّرَ عليه وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها³⁸.

ولما بلغ صلاح الدين هذا الخبر، جمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمي، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم فقام نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك، واستعظمه وقال لصلاح الدين: "أنا أبوك، وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثرُ محبة لك من جميع ما ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين، لم يمكنّا إلا أن نقبَلَ الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنُّك بغيرنا؟، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوَّابُه بها، فإن أراد عزلك سَمِعنا وأطعنا"³⁹، ففعل صلاح الدين، وكتب إليه بالطاعة، فزالَت الوحشة بينهما⁴⁰.

وتجدد الأمر نفسه بعد فترة وجيزة وعادت الوحشة بين القائدين وأصبحت حقيقة واضحة، ففي جمادى الأول من سنة 568هـ/1173م أصدر نور الدين أمرا إلى صلاح الدين بغزو حصن الكرك⁴¹، وكانا قد اتفقا على ذلك من قبل، بعد إن اعتذر صلاح الدين عما حدث في الغزوة الأولى، وقد اتفقا أن يخرج صلاح الدين من مصر ونور الدين من دمشق فأيهما وصل الأول للحصن انتظر صاحبه، فخرج صلاح الدين من مصر في شوال 568هـ/ماي 1173م، وحاصر الحصن فعلا ولكنه انسحب منه راجعا لمصر لما سمع بمرض أبيه نجم الدين، وأرسل الفقيه عيسى الهكاري يعتذر إلى نور الدين فزادت تلك الحادثة من وحشة نور الدين وغضبه على صلاح الدين .

وفي خِصَم هذه الأحداث المتسلسلة كان نور الدين زنكي يتطلع إلى تحرير بيت المقدس بوتيرة سريعة، حيث فعّل جهته الشمالية قاصدا فلسطين، فسيّر الجيوش والعساكر في محاولة منه إلى تحرير القلاع والحصون المتاخمة لبيت المقدس، وكان يُصِرُّ على أن يحذو الجيش المصري حذوه من الناحية الجنوبية، ممّا شكّل ضغطا رهيبا على صلاح الدين الأيوبي الذي كان يرى خلاف هذه السرعة والتسرع من طرف نور الدين، وهذا بحكم ما كانت عليه الأوضاع في الديار المصرية في تلك الفترات الحاقنة.

ومن كل ما تقدم وغيره نتبين أن العلاقة بين الرجلين كانت علاقة ينتظما الاحترام والإخلاص، ومعرفة كل منهما لقدر صاحبه، وإن شأها بعض الخلاف في وجهات النظر دون الغايات في أكثر من مسألة، وأن حاشية كل منهما لم تكن تخلو من رجال يحاولون بث الشكوك بينهما، ولكن الرجلين كانا على مستوى الأحداث، ولولا فضل الله عز وجل لقد كادت هذه الأزمة بين القائدين أن تعصف بمشروع الجهاد وإعادته إلى نقطة الصفر.

5. الخاتمة:

استطاع نور الدين محمود زنكي تحقيق الوحدة بين مصر وبلاد الشام ومناطق أخرى قريبة من إمارات الصليبيين في المشرق مما جعلهم في نطاق محكم من الحصار منعهم من التوسع والسيطرة على أراضي وممتلكات أخرى للمسلمين، وأصبحت في يده قوة كبرى استطاع بفضلها أن يلحق هزائم كثيرة بالإفرنج. أما علاقة نور الدين بصلاح الدين فإنها لم تصل إلى درجة العداء، وإن اختلفا في بعض القضايا فقد توافقا في الكثير منها، وقد اكتسب الناصر صلاح الدين من صفات نور الدين وتأثر به وسار على نهجه وأكمل مسيرته وتمكن من تحقيق أهداف البيت الزنكي من خلال توحيد الجبهة الإسلامية وتطويق الصليبيين ثم الانتصار عليهم واسترداد بيت المقدس.

6. قائمة المراجع:

1- ابن الأثير:

- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963.

- الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.

2- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

3- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر دت

4- ابن كثير: البداية و النهاية، هجر للطباعة و النشر، القاهرة 1997

5- أبو شامة :

-الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2002

-مختصر الروضتين، تصنيف موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية، 1999.

1- أحمد شامي: صلاح الدين والصليبيون، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1991

2- أنس أحمد كرزون: القائد المجاهد نور الدين زنكي شخصيته وعصره.

7- جمال الدين ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين شيال.

- 6- الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت. 1985.
- 1- عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر، دار الفكر العربي، القاهرة. 1997.
- 2- علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة 1952.
- 1- محمد سهيل طقوش: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت. 2008.
- 8- ناصر الدين بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، الموصل 1970.
- 3- وفاء محمد علي: قيام الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.
- 9- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1977.
7. الهوامش:

- ¹عز الدين ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963، ص 166
- ²قطب الدين مودود بن زنكي، ابن آقنسقر، صاحب الموصل، دام حكمه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، كان من أحسن الملوك سيرة، وأعظمهم عن أموال رعيته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، سريع الانفعال للخير، بطيئاً عن الشر، جم المناقب، قليل المعاييب. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985، ج 20، ص 522.
- ³ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 94.
- ⁴عز الدين ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ج 9، ص 348.
- ⁵أنس أحمد كرزون: القائد المجاهد نور الدين زنكي شخصيته وعصره، ص 59.
- ⁶أبو شامة: مختصر الروضتين، تصنيف موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، جدة السعودية، 1999، ص 27.
- ⁷شهاب الدين أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2002، ص 38-39.
- ⁸ملك الأمراء بدمشق معين الدين الطغتكيني، أمير سانس، رئيس شجاع مهيب، فحل الرأي، كان يحب العلماء والصلحاء، ويبذل المال وكانت الفرنجة تخافه، توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة. الذهبي: المصدر السابق، ج 20، ص 229.

- 9- أبو شامة: المرجع نفسه، ص 92.
- 10- الملك المنصور، فاتح الديار المصرية، أسد الدين شيركوه بن شاذي، نشأ هو وأخوه بتكريت، قدم الأخوان الشام، وخرجا وتنقلت بهما الأحوال إلى أن صار شيركوه من أكبر أمراء نور الدين، وصار مقدم جيوشه كان أحد الأبطال المذكورين، والشجعان الموصوفين، ترعب الفرنج من ذكره. فتح مصر وتولى الوزارة بها. الذهبي: المصدر نفسه، ج 20، ص ص 588-589.
- 11- أبو شامة: المرجع نفسه، ص 93.
- 12- أبو شامة: مختصر الروضتين، ص 94.
- 13- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 9، ص 392.
- 14- ستيفن رنسيمن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، مكتبة الشروق، القاهرة 2000، ج 2، ص 425.
- 15- هو أبو شجاع شاور بن مجبر بن نزار بن عشائر بن شاش السعدي كان وزيراً للخلافة الفاطمية في عهد العاضد قتل عام 564هـ/1169م ابن خلكان، وفيات، ج 1، ص 220، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 5، ص 345.
- 16- جمال الدين ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين شيال ج 1، ص 163-168.
- 17- ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 138.
- 18- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 02، ص 479.
- 19- ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 15. أبو شامة: الروضتين، ج 2، ص ص 58-59.
- 20- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج 02، ص 189.
- 21- قضية التآمر مع الصليبيين من طرف الفاطميين تكاد تكون من خصائص السياسة الفاطمية، فقد أسترسل ابن تغري بردي في شرح كيف خرجت عساكر المسلمين في العراق والشام لصد زحف الصليبيين، كل ذلك وعساكر مصر لم تنهياً للخروج ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج 5، ص 147.
- 22- علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث، القاهرة 1952، ص 144.
- 23- احمد شامي: صلاح الدين والصليبيون، مكتبة النهضة العربية، القاهرة 1991، ص 82.
- 24- ابن واصل: المصدر السابق، ص 179.

- ²⁵-تزعّم هذه الثورة أو الحركة أحد القادة الفاطميين الذي نزع إلى الجنوب بعد إخماد حركة مؤتمن الخلافة، جمع حوله عدداً كبيراً من أهل الجنوب، وكان يهدف إلى إعادة الخلافة الفاطمية، تمكن العادل شقيق صلاح الدين من القضاء عليها. محمد سهيل طقوش: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت، 2008، ص45.
- ²⁶-ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص ص 35-36.
- ²⁷-ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص 156-157.
- ²⁸-عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر، دار الفكر العربي، القاهرة 1997، ص84. وفاء محمد علي: قيام الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام، دار الفكر العربي، القاهرة 1986، ص54.
- ²⁹-ناصر الدين بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماخ، دار الطباعة الحديثة، الموصل 1970، مج04، ج01، ص47.
- ³⁰-ابن الفرات: المصدر نفسه، ج01، ص48.
- ³¹-ابن كثير: البداية والنهاية، هجر للطباعة والنشر، القاهرة 1997، ج16، ص432.
- ³²-ابن كثير: المصدر نفسه، ج16، ص442.
- ³³-ابن واصل: المصدر السابق، ج01، ص200.
- ³⁴-ابن واصل: المصدر السابق، ج01، ص232.
- ³⁵-وفاء محمد علي: المرجع السابق، ص73.
- ³⁶-ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص159. سهيل طقوش: المرجع السابق، ص40.
- ³⁷-ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص ص 35-36.
- ³⁸-علي بيومي: المرجع السابق، ص183.
- ³⁹-ابن كثير: المصدر السابق، ج16، ص460.
- ⁴⁰-شهاب الدين ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، بيروت، 1986، ج06، ص364.
- ⁴¹-الكرك اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من النواحي البلقاء، كان نورالدين زنكي يرغب في الاستيلاء عليه، لكن استعصى عليه لمنعته وقوته، وتمكن منها صلاح الدين سنة 584هـ / 1188م. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، ج04، ص453.